حج سبع نجوم

قال تعالى في محكم كتابه: "ولله على النّاس حج البيت من استطاع إليه سبيلًا".

نعم "من استطاع إليه سبيلًا"؟!

تداولت وسائل الاعلام مؤخرًا خبر زيادة تكاليف الحج بشكل كبير وملحوظ حيث يصل تكاليف الشّخص الواحد ما يُعادل عشرة آلاف دولار أمريكي.

طبعًا هذا مبلغ كبير إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ غالبية الحُجّاج هم من عامة الشّعب أو حتى من الأشخاص غير المُقتدرين. لن نتعرّض هنا إلى النّظريات الاجتماعية التي تقول أنّ المتدينين في غالبيتهم يأتون من بين طبقات الشّعب الفقيرة ناهيك عن الحقيقة أنّ الحاج أو الحاجة لا يخرجون عادة منفردين، بل أزواجًا. حيث أنّ قضية "المحرم" هي قضية مهمّة ومركزيّة في الإسلام، فالرّجل يخرج مع زوجته أو أخته أو أمه وما إلى ذلك. معنى الأمر أنّ الزّوجين بحاجة إلى عشرين ألف دولار كتكاليف ورسوم للحج ولا يتضمن ذلك المصاريف اليوميّة من مأكل ومشرب وسفريات وغيرها من الأمور الأخرى. الحقيقة أنّ هذه المبالغ تُعتبر خيالية بالنّسبة لمعظم النّاس حتى للطبقة الوسطى من موظّفين وأجيرين. هل معنى هذا أنّ الحج سيُصبح للأغنياء فقط؟!

لا تقتصر تكاليف الحج في بلادنا على مصاريف الحج نفسه، خلال وجود الحج في مكة والمدينة، فقد تبَنينا في بلادنا عادات غريبة دخيلة وزائدة بكل ما يتعلّق

بمراسم الحج. فهناك طبعًا عادات توديع الحاج لمدة أسبوع قبل المغادرة، تتخللها الضيافة المعتادة من شاي وقهوة وعصائر ومكسّرات، وفي آخر الليل المعجّنات وما شابه ذلك من الحلويات وغيرها. وعند عودة الحاج سالمًا يبدأ مهرجانًا من نوع جديد حيث ينهال المهنّئين إلى بيت الحاج، محمّلين بأكياس السّكر وعلب الشوكولاتة ذات النّوع الرّخيص وغيرها من الهدايا التي لا حاجة لها حيث تتكدّس بالبيت مشكّلةً عِبئًا إضافيًا على العائلة. بالمقابل يقوم الحاج وعائلته بالذهاب إلى الخليل على الأغلب، للتزوّد بكميات كبيرة من المسابح بشتّى الأنواع والأحجام، لإهدائها للمهنّئين. على فكرة كلّما كانت هديّة المهنئ أكبر وقيمته أعلى فإنّ قيمة المسبحة أكبر. طبعًا ناهيك عن سجاجيد الصّلاة، فخر الصّناعة الصّينيّة. ولا ننسى تكاليف اليافطة ذات الإضاءة المُزركشة. ومرة أخرى الشاي والقهوة والتمور، وهذه المرة تمور المدينة المنورة ذات النكهة الدينية الخاصّة، بالإضافة الى " مية زمزم " لزيادة البركة. آه نسينا ان نذكر الهدايا للأولاد والاحفاد وبطانيات الصوف الثقيلة التي تُصر الحاجة على جلبها" لكناينها " كأننا نعيش في سيبيريا. وهنا يجد الحاج نفسه متحمّلًا تكاليف الحاج الباهظة بالإضافة إلى تكاليف الوداع والاستقبال إضافة إلى أنه أصبح مديونًا للمهنّئين الذين قاموا بإحضار الهدايا والمباركات، وفي كثير من الأحيان مغلفًا فيه مبلغ من المال يبقى دَينًا في رقبته حتى يقوم بتسديده بأقرب مناسبة.

أذكر أنني في سنة من السّنوات ذهبت لتهنئة أحد الحجاج أنا وزوجتي. وعندما قلت لزوجتي أنني سأُبادر بالتّغيير بأن لا آخذ هدية لهذا الحاج، عندها رفضت

زوجتي الخروج من البيت قائلة: "ألا تخجل أن تذهب إليه خالي اليدين، أنا لن أذهب معك" عندها اضطررت أن أشتري هدية تليق "بمركزي" كما قالت زوجتي.

هل أصبح الحج تجارة؟ هل أصبح رجال الدّين تُجّارًا؟!

هناك من يقول أنّ تجارة الدين هي أكثر التجارات ربحًا في العالم وهي أقدم أنواع التّجارة منذ بدء الخليقة.

أذكر أنني قد زرت اليابان مرتين حيث استضافني أحد رجال الدّين اليابانيين. قمت بمرافقة رجل الدّين حيث توافد إليه المصلّين، منهم من يطلب بركته لشرائه سيارة أو لولادة طفل وغيرها من الأمور الغريبة العجيبة. بالطبع كل عملية من هذا النّوع كانت يرافقها مغلّفًا مليئًا بالنقود. وأذكر أن رجل الدّين قد اصطحبني معه لاجتماع عام لرجال الدّين في المنطقة. تفاجأت أنني عندما وصلت إلى مكان الاجتماع، شاهدت أغلى أنواع السّيارات في العالم من "فيراري، ولمبورجيني، ومزراتي" وغيرها من السّيارات الفاخرة، وعندما سألته عن هذه السّيارات قال الي أنها سيارات رجال الدّين. على فكرة رجل الدّين صديقي كان يملك سيارة يغوار.

هذا في اليابان.. طبعًا عندنا الأمر مختلف لكن لا شك أن بعض رجالات الدّين قد استغلّ هذا المركز وجمع أموالًا طائلة وبنى قصورًا ضخمة، خاصّة من جنّد لنفسه وسائل الاعلام والتواصل الاجتماعي، فأصبح لهم برامج ومحطّات.

للأسف أننا قد وصلنا إلى هذا الحال وسلبنا من النّاس إحدى فرائض الإسلام، دين التّواضع والتسامح والمحبّة لدرجة أنّ هناك من ينادي إلى مقاطعة الحج حتى يتراجع أصحاب القرار عن قرارهم بإعادة الأمور الى نصابها، وإعادة الأسعار إلى عهدها السّابق.

وهل يُمكن أن ننهي حديثنا بدون طرفة:

حدّثني من أثق به أنه من شدّة الزحام والتّدافع عند رمي الجمار رأى حاجًا كاد أن يسقط من أعلى الجسر، لكنه تمسّك بالحديد بقوّة، فسقطت ثياب الإحرام عنه. كان هذا الحاج افريقيًّا شديد السّواد، ضخم الجثّة. فلما رآه بعض الجهلة، ظنّه الشّيطان قد خرج، فصار يهتف بكل حماس: خرج الشّيطان!! ظهر الشّيطان!! وأخذ يسدّد الجمرات يريد أن يصيب هذا المسكين، وبدأ الجهلة يرجمون هذا المسكين بالحصى والنعال، حتى أدركته سيارة الإسعاف وهو على وشك أن يُفارق الحياة.

حجًّا مبرورًا

أ.أيمن جبارة